قصة قصيرة

في الوديان تنبت الزهور

محمد سماره

حين لمحته في ذلك المقهى العتيق ، خلته أول وهله تمثالا شمعيا أو شبحا أبيض ينتصب في مغارة . كان وجهه يتخذ هيئة غير مألوفة ، ولم تكن وضعيته وهو يجلس على كرسيه متصلبا ، شاخصا الى امام ، لتوحي لي انه في حالة طيبة . وبدت لي رقبته النحيفة انها قد استطالت بعض الشيء ، وكثرت فيها التجعدات . أما سوالفه التي وخطها الشيب ، ونظراته الحادة . فهي الشيء الوحيد الذي لم أنكره فيه منذ أن عرفته أول مرة . ترى هل يعرفني الآن بعدما تقادم العهد ، ومضت على آخر لقاء عشر سنوات ؟

قلت وأنا أقترب ، مادا يدا متهللة : ها انت تعود أخيرا . أهلا بك في بيتك ومحلتك .

وجم الرجل لحظة . رفع الي وجها هادئا ، ما لبث أن افصح عن دهشة كبيرة . ثم أشاح ببصره ، وانصرف الى كوب الشاي امامه ، وكنت ما أزال واقفا أبتسم .

قلت في سري : لعله ظنني اقصد شخصا آخر .

جلست الى جانبه ، وتنحنحت بهدوء . قلت : انني ابن الملا مسعود الهاني . ألا تعرفني ؟

التفت الرجل ، وكان قد أولاني قفاه ، وغمغم بشيء ما ، وأشار بأصابع يده في الهواء اشارات غامضة ، ولم يتفوه بشيء .

كان المقهى لحظتها فارغا تقريبا . وثمة حزمة ضوئية تسقط من فتحة صغيرة في سقف المقهى ، وتتناثر على الارض . وفكرت فيما اذا كان قد أصاب هذا الرجل شيء ما . انه يعرفني بكل تأكيد كما أعرفه، ولطالما جالسنا في البيت كما لو كان واحدا منا . فهل نسي كل هذا ؟

وضعت يدي على كتفه ، وهززته برفق ، وهممت أن أفتح فمي ، غير انه التفت الي مستنكرا ، وقد توقدت عيناه . قال : هل تعرفني ؟

أجبت ، وقد داخلني خوف غامض : أجل . فانت حمادي السرحان .

قال : لكنني لا أعرفك .

قلت : انني ابن الملا مسعود الهاني ، ذلك الصديق الذي عشت واياه في محلة واحدة . انها المحلة التي نجلس فيها الآن .

غمغم الرجل ثانية ، وحك ذقنه البيضاء ، وأمسك بحبل النارکيلة التي كانت ملقاة بين ساقيه . قال محاولا الابتسام : آسف . انني لا أعرفك .

قلت بغضب : لكنك تعرف الملا مسعود الهاني بلا شك .

نظر الرجل الي بحدة . لوى حبل نارکيلته ، ولفه حولها كمن يحاول أن ينهي موضوعا سخيفا ، ثم همس بصوت خفيض : انني لا أعرفك ، كما لا أعرف أباك . هلا كففت عن هذا السخف ؟

وأشاح ببصره بعيدا ، وقد أثارتني كلماته الاخيرة الحادة . الامر الذي جعلني افكر في حقيقة ما يقول هذا الرجل . وتراءى لي وجهه المنكمش وهو يأتي الى بيتنا مثرثرا ، أو صامتا . فيجلس وابي في الغرفة الواقعة في مؤخرة الحوش ، حيث يروحان في حديث متواصل أو صمت متقطع . واذ يخرج الرجل ـ ويكون ذلك قبيل منتصف الليل ـ يعود ابي ضاربا كفا بكف ، مؤكدا ان في أعماق هذا الرجل شيئا دفينا ، ربما هو الجنون أو العبقرية أو شيء آخر لا يدريه ، ثم يستعيذ من الشيطان مرددا بأن الله وحده يعلم فيما تنطوي عليه نفوس البشر .

تقول أمي : وماذا تنطوي عليه نفس هذا الرجل ؟ الا يكفيه بؤسا انه يعيش مع دابة ؟

فيقطب وجه ابي : ولماذا لا يعيش مع امراة ؟

فيما قبل سنوات ، كان هذا الرجل ـ كما اخبرني ابي ـ قد تعرف اليه في احد مقاهي محلتنا الواقعة

في أطراف المدينـــة ، حيث كان الرجل يملك هناك حظيره فيها حصان واحـــد يؤجره لذوي العربـــات والحاجة . وكانا ــ أبي والرجل ــ يجلسان فـي المقهى سوية ، ويروحان في حديث طويل حول الدنيا والعمل أو الحظيره والحصان ، ثم ينتهي الحديث أغلب الاحيان ــ ويستغرب أبي كيف يحدث هذا ــ حـول المرأة وماذا تعني لرجل ينام وحيـــدا في حظيرة الا من مخدة . فينفخ الرجل دخان سيجارته سارحـــا ، متطلعا الى مكان ما ، مما كان يدفع أبي الى سؤاله مـداعبا عما اذا كان قلبه قد أصابته سهـام العشق . فينتفض الرجل كمن أيقظ من غفوة ، ليقول : هه .. اتقول اني احب ؟ آه .. ولكن ما العجب في أن يحب رجـل في خريف العمر ؟ والا تراك تعجب لحب الفقراء ؟

واذ يساله أبي عما حـــدا به الى العزوف عـن الزواج حتى هذه السن المتاخرة ، يصفن الرجل برهـة ليقول : واين هي التي ترضى برجل ينام مع حصـان مريض ؟

ثم يعترف لأبي في نوبة حزن ــ ولاول مرة ــ بانه كان متزوجا فيما مضى من امراة هربت منه بعد أسبوع واحد على الدخلة . فيقول أبي وقد أربكه الخبر : ربما كان ثمة سبب عظيم جدا حدا بها للهرب .

يقول الرجل مستاء : وماذا يمكن أن يكون سـوى انها امراة جاحدة ؟

ينفخ ابي دخان سيجارته : لا عليك . فما زالت الدنيا بخير ما دام ثمة اخريات في العالم . ولكن هـل جربت حظك في أخرى ؟

يقـــول الرجل بشرود : واين هي التي ترضى برجل ميت ؟

يتفاجأ أبي : ما هذا يا رجل ؟

ــ أجل . فكثيرا ما ينتابني الشعور بانني أتجول بين الناس وأنا خارج نفسي . ربما أكون ميتا ؟ ثم أتساءل: اما آن لهذا الميت أن يستيقظ ؟ ويداخلني اليقين ان في امكان الاموات أن ينهضوا من رقدتهم كالاحياء تماما . ينفضون عن أجسادهم غبار القبر ، ويتجولون بيننا كما لو ولدوا من جديد . ألا تظن هذا ما يحدث تماما ؟

يقول أبي واجما : ماذا يعني هذا التخريف يا رجل سوى انك حزين لفقدك تلك الجاحدة ؟

ــ آه .. لطالما تمنيت أن أجد نفسي ــ في الشارع أو في الحظيرة ــ شاخص العينين ميتـا . وحين تمرّ هي وتراني تشفق عليّ ، وتكفكف الدمع ، وتقول لائمة نفسها : لقد كنت أنا السبب فيما حصل لهذا الرجـل الطيب . لقـد كنت أنا السبب . وما تلبث أن تنكفىء على جثتي نادبة .

ثم يلتفت قائلا : أتظنها ستفعل ذلك يوما ؟ قـل هل ستفعـــل ذلك أم أنها ستنظر الـــى جثتي تتزرأ وتمضي ؟

فيغمغم ابي مرتبكا . يقول مغيرا الحديث : ترى ماذا يفعل حصانك الآن بعد أن اعطيتـــــه تلك الكمية الوفيرة من البرسيم ؟

فيجيب الرجل دونما تردد : لا ريب انه ميت الآن.

* * *

في بعض الأيام ، كان هذا الرجل ــ كما عودنا ــ يغيب عن المحنه شهرا دون أن يعرف سر غيابـه احد ، ولنا نتساءل : أيكون قد مات أو جنّ ؟ فلقـد كان ابي يكرر مقولته حول اعمـاق الرجل الدفينة مختتما قوله بالاستعاذه من الشيطان ومن خبايا النفس . أو يقول ان للرجل أمابي قد لا يصلها عقل انسان . لكننا كنـــا نتفاجأ بالرجل مقبلا ، ضاحكا ، أو واجما ، فيجلس بيننا كما لو كان قد غاب ساعة لبعض شؤونه ، فيبادر ابي قائلا : ماذا كنا نتحدث يا ملا مسعود في آخر لقاء ؟ هيه .. هل قلت ان المراه تشبـــه سلسله مفاتيح في يد الرجل الصلب ؟ يا الهي ! ماذا تقصـد ؟ وهل كنت انا في يدها العوبة ؟

وأحيانا أخرى كان يغيب يوما او بعض يوم ليعود بعدها ، وقد شرد ذهنه ، وبدا ساهما دون أن يبدو على شفتيه طيف ابتسامة . يجلس ساكنا . يقول : أوه .. اعلم اني غبت عنك دهرا يا ملا مسعود . ترى كم تراني غبت ؟ ثم يعرج ككل مره الى الحصان الوحيـد قائلا : هل تصدق ان الحصان أوشك أن ينفق يا ملا مسعود ؟

فيكمل أبي متأوها : ويصمت بيتك بعـدما كـان يملأه الحصان حياة وحيوية .

ــ آه .. انك تعني الحظيرة التـي أعيش فيها . لا بأس . لا بأس . فسأتعود على ذلك . هل سمعت عن رجل فقد وحيده ؟ انني ذلك الرجل .

ثم يتحشرج صوته قائلا : ولولا العادة يا ملا مسعود لما حملت جرحا أصابني في كتفي قبـل ثلاثين عاما . لقد كنت وقتها أهوى صعود النخيل ، حين فـوجئت بجسدي ذات مرة يهوي الى أسفل .

ــ ولِمَ لا تتعود أن تنساها ؟

ــ من ؟

ــ تلك المرأة الجاحدة .

ــ معك الحق . فكثيرا ما أتساءل اذ أستلقي في الفراش البارد : ماذا يعني أن أتعود كل شيء الا ذلك ؟ هل لديك أنت اجابة يا ملا مسعود ؟

ثم يردد هامسا : لقد نويت أن أفعلها وأهاجر .

ــ ولكن لماذا ؟

فيتردد الرجل لحظة يغيب خلالها في تهويمـة ، ينتفض بعدها : انني سأبحث عما يشغل رأسي الآن .

سأجوب البحار . أقطع الجبال . ابحث عن الكنز الذي يملأ فراغ قلبي . ترى هل أجد ذلك الكنز ؟

ـ كنز ؟

ـ اوه .. كلا . انني أعني ذلك الشيء الذي أملأ به هذا الفراغ . لكن ما هو ؟ أنا نفسي لا أعرف .

فيعتدل أبي في جلسته . ينبش الارض بعود في يده : ترى اما فكرت في الزواج من امرأة أخرى ؟ امرأة تفهمها وتفهمك . تنجب لك أطفالا يضاحكونك ويركبون فوق ظهرك ، فيما زوجتك تغزل بلوزك قبالتك ، والنار تتعالى في الموقد ، ناشرة الدفء في الغرفة الباردة ، والا تراها عادة هي الاخرى أن تعيش في حظيرة مع حصان مريض ، حيث تعشش العناكب والصراصير ؟

يتفاجأ الرجل . ينظر حواليه بخواء ، ثم يقول برنة عتاب : صدقت يا ملا . انها حظيرة تلك التي اعيش فيها مع حصاني الوحيد المزيض ، ولكن أين هي التي ترضى برجل يمتلك حصانا مريضا ؟ لقد كانت الخبيثة تجالسني ضاحكة ، وتحدثني حول المستقبل ، راسمة على وجهها ابتسامة بريئة ، وتقول : اننا سنكون أغنياء يا حمادي ، مالكين لمجموعة حصن عما قريب . لكنني فوجئت بفراشها بعد ساعات خاليا في تلك الليلة الماطرة . وعندما تطلعت من النافذة ، رأيتها تهرول في الزقاق لا تلوي على شيء ، وكان شعرها اشعث ، وقد انفتح (سحاب) ثوبها من الخلف ، فبدا لحم ظهرها كالحليب . انني أفكر بعجب : كيف يحدث مثل ذلك في الحياة ؟!

واذ لا يجيب أبي بشيء ، يتابع الرجل : أتخمن انها ستعود اليّ بمثل تلك البساطة التي هربت بها ؟

ثم ما يلبث أن يأخذ في التطلع عبر الغرفة التي نجلس فيها ، ناظرا في الفضاء الازرق البعيد ، ويردد بهمس : يخيل اليّ انها ستطرق الباب يوما وتدخل الى الحظيرة نادمة . تركع على الارض طالبة الرحمة ، ثم تستلقي على الفراش ، وتطلب اليّ أن أستلقي الى جانبها : أتظنها ستفعل ذلك ؟

* * *

في الاصياف الماضية ، واذ ينضج التمر على النخيل ، كان هذا الرجل يفاجئنا بوجوده كما هي عادته كل مرة . يدخل البيت ، وقد حمل على كتفه مشدا من الليف ، ومنجلا صدئا ، ودون أن يتفوه بأيما شيء ، نراه وقد صعد النخلة الوحيدة في البيت . وما هي الا لحظات حتى نسمع صوته مناديا علينا من فوق ، ملوحا بأحد عذوقها ، ملقيا به ، صائحا : هاكم خير هذه السنة . انه العذق المبارك . اياكم أن تتركوه دون أن تأتوا عليه تماما . ثم يهبط بخفة القرد ، متوسطا الحوش ، وقد تفصد عرقا ، فيتربع على الارض ، وقد تحلق الجميع حوله بما فيهم أبي وأمي ، ويروح يقصّ العذق بمنجله ، موزعا خصلاته قائلا : هذا لمحمد . وهذا لحليمة . وهذا لسعدية . أما هذان القسمان ، وهما أكبر الحصص جميعا ، فهما للملا مسعود وزوجته . ثم يبرر ذلك ضاحكا : والسبب انهما صاحبا النخلة أبا عن جد . أما انا فيكفيني انني قسمت ما جنيت بالعدل والقسطاس .

ثم يجلس وأبي في الغرفة يأكلان الرطب ، ويتحادثان كما هي العادة . أسمع الرجل أحيانا يذكر حصانه الوحيد . يقول بصوت حزين : لولا هذا الحصان يا ملا مسعود لمتّ كمدا . انه العصا التي اتوكأ عليها . لكنه كثير المرض هذه الايام .

ثم يقول ساهما : لقد عاش معي وعمره شهر واحد . كنت أرضعه الحليب من رضاعة أطفال حتى اصبح عمره الان خمسة عشر عاما . أجل . وذلك يعني مقارنة مع عمر الانسان انه قارب الستين من العمر . وما هي الا سنوات قلائل حتى يهرم مثل صاحبه .

ويخفت صوت الرجل ، ليقول بجرس مختلف : حين رأيت بعض رجال الآثار يحفرون في التلال القريبة، منقبين عما خلفه سوانا قبل آلاف السنوات من أدوات وحيوانات ، قلت في سري : لا شك انه قادم ذلك اليوم الذي تنقب فيه الاجيال القادمة في هذه المحلة عن آثار أصحابها . وعندما يعثرون على عظامنا ـ أنا والحصان ـ سيتفاجأون لهذه الظاهرة ويقولون باندهاش : عجبا ! هل هما توأمان ؟!

* * *

بعد هذا الحديث ، لم يجدّ جديد في أمر الرجل سوى انه كان يكثر من طرق هذه المواضيع ، وكان يسميها أحاديث القلب ، حتى جاء يوم علمنا فيه ان الحصان المريض مات . ورأينا حمادي السرحان بعدها شارد الذهن ، ساهما ، وقد بدا أقل اقبالا على التحدث الى أحد او الخروج من الحظيرة ، فكان أبي يضطر الى زيارته هناك ، والجلوس اليه مواسيا . اقتعد الرجلان ـ في الزورة الاولى ـ كرسيين مستهلكين متقابلين ، وتحادثا في أمور عادية ، ثم ما لبثا ان صمتا ، وأخذ كل منهما ينظر حواليه بفراغ . قال الرجل حزينا : لقد انكسرت العصا أخيرا يا ملا مسعود .

قال أبي : العصا ؟!

تأوه الرجل ، مشيرا الى موضع الحصان الفارغ : وهل ثمة في الحظيرة عصا سواه ؟

تأوه أبي هو الآخر ، ونظر حواليه كما لو كان يفتش عما يسعفه في لحظة كهذه ، غير ان الرجل أردف : لقد آن الاوان . فلم يبق ثمة ما أبقى لاجله . لقد هربت المراة ومات الحصان .

فنظر ابي الى موضع الحصان وقال كمن وجد حلا : ولماذا لا تملأ هذا الفراغ بحصان آخر ؟

ـ وكيف ، وكل ما في الحظيرة لا يساوي حصانا ؟

بغتة . تغير لون ابي . مد يده بحركة سريعة الى جيب الجاكتة الداخلي . فادرك الرجل ماذا يعني أبي من هذه الحركة ، فما اسرع ما أمسك يده بشدة . مقسما انه لن يأخذ شيئا . وظل ماسكا بيده حتى أخرجها ابي فارغة . وقال الرجل : لقد مات من كان يجلب النفود ، وانتهى كل شيء .

فتغير لون أبي ثانية . فطب وجهه . وأخذ يتطلع حواليه باسى ، وغمغم بشيء ما ، واذ لم يجد ما يقوله خرج .

ومضت على هذا اللقاء ثلاثة أسابيع ، علمنا بعدها ان الرجل باع حظيرته بأبخس الاثمان ، واختفى . وقلنا : أيكون قد عملها وهاجر ؟ ولكن أين يهاجر رجل شارف على الستين كحمادي السرحان ؟ غير اننا ما لبثنا بعد أشهر أن كففنا عن ذكره تماما باستثناء بعض النهارات الصيفية التي كان أبي يتطلع خلالها الى عذوق النخلة وهي تتوهج تحت أشعة الشمس ، ويقول بحزن : لو كان حمادي هنا لما انتظرت هذه العذوق الذهبية حتى تنقرها العصافير . ولكن ما الذي يهدف اليه هذا المجنون من كل هذا ؟

أو ليقول ضاحكا : لقد أضحكني هذا الرجل كثيرا اذ وصف ظهر زوجته بالحليب . ترى هل ثمة اكثر طرافة من أن يصف ذلك الوصف وهو في نوبة حزن مريرة ؟

أو ليقول مرة أخرى : لقد كاد يبكيني وهو يحكي لي وحدته اذ يتلمس فراشها البارد . معه الحق . فليس هناك أكثر اثباطا للنفس من أن يكتشف الانسان انه كان مخدوعا فيمن يحب .

ومرت الايام ، وتلتها السنوات ، نسينا خلالها حمادي السرحان . ثم مات ابواي ، وتفرق الشمل ، غير ان النخلة ظلت وسط الحوش تذكرني عذوقها الذهبية المتوهجة صيفا برجل كان يرتقيها ذات يوم ، ويهبط مقسما خيرها علينا بالعدل والقسطاس .

* * *

كان المقهى ما يزال فارغا تقريبا . وثمة رجل يجلس في المؤخرة مهموما . وكان حمادي السرحان ما زال موليا قفاه ، متوترا ، ساكنا . وقد بدت لي رقبته النحيلة كما لو انها ستنكفىء على صدره . وتساءلت ما اذا كان ما زال واقعا تحت تأثير عاداته الغريبة . وقلت أخيرا : أمصر أنت انك لا تعرفني حقا ؟

لم يجب الرجل . ورأيته يحرك جمرات النارکيلة بعود ثقاب ، وقد ازداد توترا . وحدست انه يفتعل عدم معرفته بي ، ولكن ماذا يبغي من وراء ذلك ؟

وفاجأته أخيرا : أما زال الجرح القديم على كتفك من أثر ارتقائك النخلة ؟ وهي .. أما زالت بعيدة عنك بعد أن هجرتك في تلك الليلة الماطرة ؟

انتفض الرجل بغتة . أدار لي وجها شاحبا . متقلصا . ما لبث أن انبسط شيئا فشيئا حتى تورد . ثم باغتني هاتفا : أتكون أنت محمد الصغير ابن الملا مسعود ؟

وقبل أن أجيب بشيء ، رأيته ينهض ، ويعانقني بحرارة ، ويجلسني الى جواره فرحا ، وقد انبسطت أساريره تماما . نظر في وجهي متأملا . قال :

ـ أعذرني يا بني اذ لم أتذكرك . انها حكم السن . ولكن أتذكرني انت حقا ؟

ـ يا الهي .. وكيف أنسى الرجل الذي عاش معنا كما لو كان واحدا منا ؟

ـ والنخلة ؟ أما زالت النخلة كما عهدتها : سمينة بالعذوق الذهبية و ...

ـ لم يعد ثمة من يرعاها .. انها تكاد تذوي بغيابك .

ـ يا الهي . ترى كم تراني غبت عنكم ؟ أهي شهور عديدة ؟ انني أشعر أحيانا ان ثمة ضعفا بدأ يدب في ذاكرتي .

ـ انها عشر سنوات لا اكثر .

ـ ماذا ؟ عشر سنوات ؟ كيف يحدث هذا ؟

ثم انفرج فمه عن ابتسامة باهتة . قال : ذلك حق . فلقد كنت أنت صغيرا في آخر لقاء . أما الآن .. آه ! انني أكاد أحسدك على تلك الفتوة . ولكن قل لي : ماذا حل بالملا مسعود ؟ أما زال شيق الحديث طلي العبارة كما عهدته ؟

ـ لقد مات أبي ، ولحقته أمي .

ـ رباه . وأختاك ؟

ـ تزوجتا منذ زمن بعيد .

ـ وأنت ؟

ـ ما زلت في البيت أرقب النخلة ، وأتذكرك اذ يحل الصيف .

سرح الرجل لحظة . ألقى حبل النارکيلة الى جانب وأخذ يهمس بينه وبين نفسه شيئا ، وكانت عيناه تنظران في البعيد ، فيما بدا الهرم واضحا في وجهه الشاحب ، وعينيه الغائرتين . وقلت في سري : أي مكان آوى هذا الرجل طيلة عشر سنوات ؟

واذ سألته ذلك ، نظر الي ، ثم ما لبث أن سرح ، وكانت عيناه الغائرتان تطرفان ، ويداه ترتعشان . قال : لقد كنت معها .

ـ من ؟

اعتدل في جلسته . نظر الي مندهشا : ما هذا ؟ ألا تعرفها ، والا تراك نسيت كل شيء ؟ انها مريم .

قلت : هل تعني تلك المرأة التي ...

ـ انها تزورني بين الفينة والفينة . تطرق عليّ الباب ، فتعانقني وأعانقها حيث نمضي بقية الليل في النجوى والعتاب . آه .. هل جربت يا بني عتاب الاحباب اذ يكون اللقاء ؟ انه يشبه الحلوى تحت الاضراس .

ـ وهل عدت الى الحظيرة ؟

بوغت الرجل : حظيرة ؟ آه .. هل تعني الحظيرة القديمة ؟ كلا . انني أملك الآن بيتا صغيرا ، وحظيرة صغيرة ، وفرسا بيضاء رائعة . لقد حدث ذلك اذ رحلت الى الوادي الذي يقع خلف البحر .

ـ البحر ؟!

تأملني الرجل مليا : ما هذا ؟ انه البحر الذي يبدو أمامنا الآن .

ثم صفن محدقا في البرية التي بدت أمام أعيننا. وفكرت ما اذا كان هذا الرجل قد جنّ . وأردف أخيرا : وحين وجدت نفسي وحيدا الا من أسمال بالية ، وحذاء عتيق ، فكرت أن ابني بيتا أسكنه طيلة ما بقي لي من العمر . واذ شرعت أجمع الاخشاب من غابة بعيدة ، وكنت أتصبب عرقا ، فاجأتني فرس بيضاء ، رأيتها تركض في الخلاء وحيدة . فرس دهماء لم أشهد لجمالها مثيلا ، تخبّ بشكل مغر ، وكان عرفها الاشقر يتهدل على مقدمة الراس بنزق ، مغطيا جزءا من الوجه ، فتبدو كما لو كانت عروسا ساعة الدخلة . كانت الفرس تقترب مني فيما مؤخرتها تتحرك بانسياب، حركة اسمع لها وقعا أقرب الى النغمة ، فكنت أنظر اليها مبهورا ، مشدودا الى الامعان فيها ، حتى ان عينيّ لم تغفل عنها لحظة ، وكنت أهمس مع نفسي : ما سر هذا الانشداد الغامض ؟ وحين توقفت الى جانبي، فوجئت بها تتمسح بي محنية الراس طائعة . وقلت : أهي تعرفني تلك الفرس أم ان في الامر سحرا ؟

وحين أمسكت برسنها ، انقادت لي كأنني ساحر. فسرت بها في البيداء ، حتى وصلت الغرفة التي كنت قد أنجزت جزءا كبيرا منها . صحيح انها غرفة صغيرة ، لكنني استطعت أن ألحق بها حظيرة صغيرة كما لو كنت أعلم بما سيحدث . ورحت أمسّد على جسد الفرس برفق ، فترفع راسها باغتباط ، فأشعر اننا أصدقاء نتخاطب بلغة الحب . هل رأيت في حياتك لغة أبلغ من لغة الحب ؟ انها اللغة التي يتخاطب بها الفقراء الاحباب .

وتوقف الرجل ، مراقبا الفضاء الممتد ، وأردف باغتباط : في ذات يوم ، وكنت أطعم الفرس ، وأمسّد على جسدها كما هي عادتي قبل أن أنام ، فوجئت بمن يطرق الباب مساء . قلت : من يطرق الباب ؟ أجابني صوت عرفته في الحال : افتح يا حمادي . أتكون قد نمت في هذه الساعة المبكرة ؟

واذ فتحت الباب ، ورأيتها أمامي ، اشتد بي الغضب . قلت لها : ماذا تريدين يا مريم ؟ قالت : هل أجد في قلبك مكانا في تلك الليلة الباردة ؟

لحظتها ـ ولا أدري كيف حدث هذا ـ انهار جليد الغضب في قلبي . ففتحت لها الباب على مصراعيه ، واستلقينا في الفراش معا ، ورحت أنظر في عينيها الخضراوين ، وأقول : هل ثمة من منحك الحب الصادق مثلي يا مريم ؟

قالت : لقد حدث ذلك ، وأنا في حالة أقرب الى الغيبوبة . لقد غرر بي ذلك الوغد فتركتك وأنت أحوج الى من يقف الى جانبك . انها غلطة يا حمادي . غلطة كبيرة حقا . فهل تغفر لي تلك الغلطة ؟

وركعت تحت أقدامي باكية ، وكان جسدها يرتعش . فقلت لها : دعينا من الماضي الآن يا مريم . وقبّلتها في رأسها ، ووجهها ، ونسيت كل شيء .

وزفر الرجل ، والتفت قائلا : لا أدري يا بني لماذا ينسى الانسان الحقد في لحظة خاطفة ؟ لحظة صغيرة ليست سوى جزء صغير من عمر طويل . بعدها عشت مع مريم كما لو كنا عصفورين صغيرين أليفين . في بعض الامسيات كنت أتفاجأ بها داخلة على أطراف أصابعها خشية أن أستيقظ . وعندما أرفع الغطاء وأراها تقدم العلف للفرس ، يطيب لي أن أتناوم ، مراقبا ما تفعل ، متلذذا برؤيتها اذ تمسد خطم الفرس أو هي تصفّر اذ تقدم سطل الماء . أحيانا أتأملها اذ تكون نائمة الى جانبي مغمضة العينين ، وقد أشرق وجهها عن ابتسامة بريئة ، فأقول : كيف يحدث أن تهبط السعادة مرة واحدة ؟ فذات ليلة ، وكنت في الحظيرة أعتني بالفرس ، باغتني النوم فنمت . وفي لحظة بين النوم واليقظة ، صحوت على خطواتها الرقيقة وهي تحمل دثارا لتغطيني من البرد . بعد هذا الحادث كدت أعبدها . وكنت كل صباح أتركها نائمة لأعتني بالفرس وحدي . وحين تستيقظ هي وتراني منهمكا ، تعاتبني على ذلك ، وتزعل لأني لم أوقظها . فكنت أقول لها : ذلك ما تعودت عليه يا مريم . أما أنت فما عليك الا امتطاء صهوة الفرس ، والتجوال في البرية . فلقد كان يلذ لي أن أرقبها وهي ممتطية صهوة الفرس ، فيما شعرها الاصفر يهفهف مع الريح ، وقد انحسر ثوبها من موضع الظهر عن لحم أبيض . ويخطر في ذهني الفراغ الذي كنت سأملأه في يوم ما ، ذلك الفراغ الذي تحدثت عنه في يوم من الايام .

ثم اكتأب وجه الرجل ، وأعاد عليّ حكاية الليلة التي وجد فيها الفراش باردا ، وكانت هي تهرول تحت

زخات المطر هاربة . وصمت لحظات لبقول : ترى ما الذي دفع مريم لان تفعل ذلك ؟

ثم ما لبث وجهه أن تورد . وقال : لا ريب انك متلهف الآن للتعرف اليها . أليس كذلك ؟ ربما هي تجمع الزهور من الصحراء في طبقها الفضي أو تغني ، وقد امتطت صهوة الفرس . هل أخبرتك انها تحب أن تفعل ذلك تحت زخات المطر ؟

ـ كلا .

ـ آه .. انها عادة درجت عليها مريم . فكلما هطلت السماء سارعت الى فرسها مهرولة بها في الصحراء ، وقد أشرعت كفيها بمرح ، لتتلقى حبات المطر المتساقطة . أما شعرها الاصفر ، فما أروعه اذ يتبلل بقطرات المطر ، ويبدو كما لو كان أسلاكا ذهبية . ولكن قل لي يا بني ، لِمَ تحب مريم أن تفعل ذلك ؟

* * *

لم تكن الاسئلة التي دارت في ذهني وأنا أجلس الى هذا الرجل قد وجدت جوابا بعد . وكنت أتطلع اليه صامتا ، وأقول : أي واد يتحدث عنه هذا الرجل ؛ وأي زوجة هذه التي تذكرته بعد طول انقطاع ؟ وأخيرا : ما الذي عاد به الى محلته القديمة ؟

وكأنما هو قرأ أفكاري ، فقد تطلع الي برهة ، وقال كالمعاتب : الا تصدق انها قد عادت الي بعد تلك الليلة الماطرة ؟

وقبل أن أجيب بأيما شيء ، قال : آه .. ما أروع ذلك . لقد بدأت السماء تمطر .

وسرح الرجل ، ناظرا الى القطرات المائية الدقيقة التي أخذت تلتصق ببطء على زجاج المقهى من الخارج ، وقد شرد ذهنه تماما .

قال : يا الهي .. يخيل الي انني أسمع صوتها قادما من الصحراء .

وألقى حبل الناركيلة الى جانب ، وانتبه حذرا لكي لا يفوته سماع شيء . وقال بفرح : انني أسمعها بوضوح الآن . انها تردد تلك الاغنية المرحة .

والتفت الي : ألم تسمعها بعد ؟

ـ انني لم أسمع شيئا يا عم حمادي .

ـ ما هذا ؟ لكنها تظهر الآن .

وراح يتطلع أمامه ، وقد انبسطت ملامحه عن وجه مشرق . لبرهة رأيت لدهشتي امرأة شقراء ترتدي ثيابا بيضا ، تقبل من بعيد ، وقد امتطت صهوة فرس ، وتحمل بيدها طبقا يلتمع في الشمس . وكانت تنطلق في الصحراء ضاحكة . مدت يدها الى الطبق ، وغرفت منه قبضة من الزهر نثرتها في الهواء بمرح وهي تردد اغنية شعبية ضاحكة . كنت أنا أرقب ذلك غير مصدق ، وكان حمادي السرحان يقهقه منشرح الصدر . وقد تراءى لي انني أسمع المرأة تهتف باسمه ، وتلوح بيدها وهي تقبل باتجاهنا كسهم بنطلق .

بغداد

صدر حديثا :

الطريق الى الخيمة الاخرى

دراسة في اعمال غسان كنفاني

تاليف الدكتورة رضوى عاشور

دار الآداب